بسم الله الرحمن الرحيم

محاضرات في شرح صحيح الإمام البخاري

المحاضرة الثانية (٢)

الخميس ، ٤ جمادى الأولى، ١٤٣٢هـ

ترجمة الإمام البُخاري

تلامذته :

أول ما كُتِب عن الإمام البخاري – رحمه الله – كما يروي أبو بكر بن أبي عتَّاب الأعين : "كتبنا عن محمد بن إسماعيل وهو أمرد ، وكان سِن البخاري ، إذ ذاك نحوا من ثمانية عشر سنة أو دونها " .

وحدَّث عنه خلائق كُثُر ، على رأسهم الإمام مسلم ، والترمذي ، وأبو حاتم ، وابن أبي الدنيا ، وإبراهيم الحربي ، وصالح جزرة ، وابن خزيمة ، وإبراهيم بن معقل النسفي – صاحب التفسير - ، ومحمد بن يوسف الفربري – راوية الجامع الصحيح - ، وعبد الله بن الأشقر ، ومحمد بن سليمان بن فارس – الذي روى كتاب التاريخ الكبير - ، والقاضي المحاملي ، ومنصور بن محمد البَرذوي ، وابن أبي داوود ، ومحمود بن عنبر .... وغيرهم

وقد ذكر الفربري (ت٣٢٠هـ) أنه قد سمع من البخاري جامعه الصحيح تسعون ألف رجل كان هو آخرهم ([1]) .

وقال الحاكم أبو عبد الله : " ورد نيسابور سنة خمسين ومائتين فأقام بها خمس سنين يحدِّث على الدوام "

سيرته وأخلاقه وشمائله :

كان – رحمه الله – يقول : " ما اغتبت أحدا – قط – مذ علمت أن الغيبة حرام "

وحتى في مسألة علم الرجال التي هي قائمة على جرح الأشخاص وتعديلهم فإن المتمرس لصنيع الإمام البخاري في هذه البابة يعلم أن حتى جرحه لبعض الرجال كان غاية في التحرز والتحرص والحذر والأدب ، يقول ابن حجر – رحمـــه الله - : " وللبخاري في كلامه على الرجال توق زائد ، وتحر بليغ ، يظهر لمن تأمل كلامه في الجرح والتعديل ، فإن أكثر ما يقول : " سكتوا عنه " ، " فيه نظر" ، " تركوه " ... ونحوه ، وقلَّ مايقول : " كذَّاب أو وضَّاع " ، ولكن يقول : "كذبه فلان " أو " رماه فلان " .

زهده وعطاءه :

وكان زاهدا ، جوادا ، معطاءا .

يقول ورَّاقه : "كان البخاري قليل الكل جدا ، كثير الإحسان إلى الطلبة ، مفرط الكرم ".

---

[1] - وقد وهم الفربري في كونه هو آخرهم إذ قد وقفت على رجل آخر قد مات بعد الفربري بنحو تسع سنوات روى هو – أيضا – هذا الجامع الصحيح عن البخاري وهو : أوبو طلحة منصور بن محمد (ت٣٢٩هـ) .

ويقول – أيضا - : "كان أبو عبد الله ربما يأتي عليه النهار فلا يأكل فيه رقاقة ، إنما يأكل أحيانا لوزتين أو ثلاثا ، وكان يتصدق بالمال الكثير ، يأخذ بيده صاحب الحاجة من أهل الحديث ، فيناوله ما بين العشرين إلى الثلاثين وأقل وأكثر ، من غير أن يشعر بذلك أحد ، وكان لايفارقه كيسه ، ورأيته ناول رجلا صرة علمت منه – أي من الرجل – إنها ثلاثمائة درهم ".

عبادته وورعه :

كان – رحمه الله – عابدا ورعا ، فكان يقرأ في السحر في صلاته ثلاثة عشر ركعة عشرة أجزاء ، ويختم كل ثلاث ليال ، وكان يختم بالنهار في كل يوم ختمة ، وكان شديد الحياء ، كما روى بن سلام : " أترون البكر أشد حياء من

البخاري !!"

وقد أبره زنبور وهو يصلي سبع عشرة مرة حتى تورم بدنه وهو يصلي فما قطع صلاته ، فلما سأله أهله لِمَ لم تقطع صلاتك ؟ قال : كنت أقرأ سورة فأحببت أن أنهيها ، فانشغلت بها فتخاافت " .

وروى الخطيب بإسناده عن الفربري أنه قال : رأيت النبي في النوم ، فقال لي : أين تريد ؟فقلت أريد محمد بن إسماعيل ، فقال : أقرأه مني السلام .

وكان – رحمه الله – حليما لا يعجل بالغضب ، بل وبالإحسان وسنامه يقابله ، فيقول عبد الله بن محمد الصارفي : "كنت عند أبي عبد الله في منزله ، فجاءته جاريته وأراجت دخول المنزل ، فعثرت في محبرة بين يديه ، فقال لها : كيف تمشين ؟ ! فقالت : إذا لم يكن طريق فكيف أمشي ؟ فبسط يديه ، وقال لها : اذهبي فقد أعتقتك ، قال : فقيل له فيما بعد :

يا أبا عبد الله هل أغضبتك الحارية ؟ قال إن كانت أغضبتني فإني أرضيت نفسي بما قد فعلت " .

وكان – رحمه الله – مجاب الدعوة ، فلما وقعت له محنته ن قال بعد أن فرغ من وِرْده : " اللهم إنه قد ضاقت عليَّ الأرض بما رحبت فاقبضني إليك " ، فما أتم شهرا حتى مات .

حياته العملية :

الإمام البخاري كان يقول : مذ وُلدت ما بِعت ولا اشتريت بدرهم حتى الكاغد ، فسئل : كيف وقد أحل الله البيع ؟ فقال : لما فيه من الزيادة والنقصان والتخليط ، فخشيت إن توليت أن أستوي بغيري " .

هيئته :

اجتمعت الهيئات التي وُصِف بها البخاري – رحمه الله – على أنه كان نحيف الجسم ، ليس بالطويل ، أبيض الوجه أحمره ، طويل اللحية ، وكان في ملبوسه شيء من شعر النبي – صلى الله عليه وسلم - ، وكان صاحب فنون .

محنته وصبره :

كان الإمام البخاري – رحمه الله – كغيره ممن سبقه ولحقه من أساطين العلماء والأئمة ممن ابتُلوا ، وامتُحنوا ، حتى بلغ من محنته ماأنف ذكره أنه قال : " قد ضاقت علي الأرض بما رحبت فاقبضني إليك " ، وهذا يعني أنه قد بلغ من ذروة المحنة والكرب مبلغا لا يهوَّن .

والمحنة – باختصار – كانت فرعا على مسألة فتنة خلق القرآن ، وهي مسألة اللفظ القرآن ، وهل هو مخلوق أم لا ؟

وقد كان أول من قال بمسألة اللفظ بالقرآن هو : حسين بن علي المعروف بالكرابيسي ، والإشكال في المسألة أن كلمة لفظي بالقرآن تحتمل معنيين ، فقد تحتمل الملفوظ نفسه ، وقد تحتمل الفعل نفسه الذي هو التلفظ وحركة اللسان .

والإمام البخاري كان يرى التفصيل في المسألة على النحو الذي ذكرته في المحاضرة

وطار الكلام عن الإمام البخاري على أنه يقول : بمسألة اللفظ بالقرآن دون التفصيل فيها ... وبدأت محنة الإمام البخاري ، وانفض الناس عنه بفعل تعليمات من محمد بن يحيي الذهلي لهم ، فانقطع الناس عنه البخاري إلا اثنين : الإمام مسلم بن الحجاج ، و الإمام أحمد بن سلمة .

وقد أظهر الإمام البخاري – رحمه الله – في هذه المحنة صبرا لا مثيل له ، فقد كثيرا من أصحابه يقولون له : إن بعض الناس يقع فيك ؟ فكان يقول : " إن كيد الشيطان كان ضعيفا ".

وكانوا يقولون : "كيف لا ندعو على هؤلاء الذين يظلمونك ويتهمونك ويتناولونك ، فقال : " قال النبي – صلى الله عليه وسلم - : " اصبروا حتى تلقوني على الحوض ، وقال : " من دعا على ظالمه فقد انتصر "

ولم تنحصر محنة الإمام – رحمه الله – في تحديد إقامته ، ومنعه من التحديث والتدريس ، والاجتماع ، وفرض عزلة تامة عليه ، ولم تقف كذلك عند مجرد اتهامه بأنه جهمي المعتقد ، بل انبنى على ذلك جُرح غائر في نفس الإمام البخاري وهو أن بعض الأئمة الأكابر المعاصرين له – كأبي زُرعة وأبي حاتم – حينما كتب إليهما الذهلي بأن البخاري يقول بمسألة اللفظ بالقرآن – دون ان ينقل تفصيل البخاري فيها – أسقطا حديثاه وتركاه

وياليت الأمر عند ذلك قد توقف ، بل إن الإمام البخاري لما استشعر أن المسألة قد جاوزت انتوى ترك نيسابور كما يذكر أحمد بن سلمة يقول :

" دخلت على البخاري فقلت : أبا عبد الله هذا الذهلي رجل مقبول وخصوصا في نيسابور ، وقد ولج في هذا الحديث حتى ما يستطيع أحد أن يكلمه فيه ، وكل مَن يختلف إليك يُطرد ، فما ترى ؟ فقبض البخاري على لحيته وقال : " وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد " ، اللهم إنك تعلم أني ما أردت المقام بنيسابور أشرا ولا بطرا ، ولاطلبا للرياسة ، وإنما أبت عليَّ نفسي في الرجوع إلى وطني لغلبة المخالفين ، ثم قال لي : إني خارج غدا من نيسابور لتخلصوا من حديثه لأجلي ، قلا : فأخبرت جماعة من أصحابنا ، فوالله ما شيعه غيري كنت معه حين خرج من البلد ، وأقام على باب البلد ثلاثة أيام لإصلاح أمره ..."

والمفترض أنه بخروج الإمام من نيسابور تكون محنته قد انتهت ، لكن الأمر لم ينته ، فقد وقعت له في بخارى محنة أخرى ، إذ لما قدم الإمام بخارى بلدته استقبله أهلها استقبالا عظيما ، وبقي أياما على الحفاوة والتكريم ، فلم يتركه الذهلي في حاله تلك ، بل أرسل كتابا إلى خالد بن أحمد أمير بخارى قال فيه : " إن هذا الرجل قد أظهر خلاف السنة " فقرأ الأمير كتابه على أهل بخارى ، فقالوا لا نفارقه ، فأمره الأمير بالخروج من البلد فخرج ... وذكرت في المحاضرة ثمة إشكالية أخرى بين الإمام والأمير وهي :

....

....

....

....

....

....

....

.... **وفاته وموته :**

يقول إبراهيم بن مَعْقِل : رأيت محمد بن إسماعيل في اليوم الذي أُخرج فيه من بخارى ، قال : فقدمت عليه ، فلقت أبا عبد الله ، كيف ترى هذا اليوم من ذلك اليوم الذي نُثر عليك فيه نثر ، فقال : لا أبالي إذا سلم دين ، قال : فخرج إلى بيكند ، فصار الناس معه إلى حزبين ، معه ، وعليه ، إلى أن كتب إليه أهل سمرقند ، فسألوه أن يقدُم عليهم ، فقدِمها حتى وصل بعض قراها وهي (خرتنك) وتبعد عن سمرقند فرسخين

، وكان له بها بعض الأرحام فبقي فيها أياما قلائل ، ثم وقعت فتنة اخرى بين أهل سمرقند بين قوم يريدون إدخاله ، وآخرين يأبون ذلك ويطلبون رحيله عنها ، فخرج يريد أن يركب دابته ، فلما استوى على دابته قال : " اللهم خِر لي ..." ، فخر ميتا

وكانت وفاته ليلة السبت ، ليلة عيد الفطر ، عنج صلاة العشاء ، ودُفن يوم الفطر ، بعد صلاة الظهر ، سنة ستة وخمسين ومائتين (٢٥٦هـ) ، وعاش أثنين وستين سنة إلا ثلاثة عشر يوما .

قال ابن جبريل : " فلما دفناه فاح من قبره رائحة غالية أطيب من المسك ، فدام ذلك أياما ، ثم علت سواري بسض غلى السماء ، فتعجب الناس منها ، وأخذ الناس من تراب قبره حتى كاد ينكشف - (ولا يخفى بدعية ذلك والتنبيه على عدم الجواز) – حتى خرج بعض مؤذيه وشاهدوا ذلك وأظهروا التوبة إلى الله من أذنيه ، ورؤيت له بعد موته منامات حسنة حدّث بها ثقات رأوها ... فرحم الله الإمام وجزاه الخير على ما قدم للإسلام والمسلمين .

الآثار العلمية للإمام البخاري – رحمه الله - :

لقد خلَّف امام البخاري – رحمه الله – غنتاجا علميا غزيرا يدل على شدة علمه ، وعظم تمكنه ، وحار الكثير في أسطر كنائزه ، وكلمات درائره إلى اللحظة التي تقرأ فيها ، من هذه ألاثار :

١ - الجامع الصحيح
٢ - الأدب المفرد
٣ - التاريخ الكبير
٤ - التاريخ الأوسط
٥ - التاريخ الصغير
٦ - خلق أفعال العباد
٧ - الرد على الجهمية
٨ - الجامع الكبير
٩ - الأشربة
١٠ -الهبة
١١ -العلل
١٢ -أسامي الصحابة الوحدان
١٣ -قضايا الصحابة والتابعين وأقوالهم
١٤ -المؤتلف والمختلف
١٥ -الكنى
١٦ -المبسوط
١٧ -رفع اليدين في الصلاة
١٨ -بر الوالدين
١٩ -الضعفاء
٢٠ -القراءة خلف الإمام

ثناءات العلماء علي الإمام البخاري – رحمه الله - :

- قال بُندار (ت٢٥٢هـ) : " هو أفقه خلق الله في وماننا " ، وقال لما قدم البصرة : " قدم اليوم سيد الفقهاء " .

- وقال رجاء بن مرجي المروزي الإمام الحافظ الناقد (ت٢٤٩هـ) : " فضل محمد بن إسماعيل على العلماء كفضل الرجال على النساء "
- وقال عبد الله بن محمد المسندي : " محمد بن إسماعيل إمام ، فمن لم يجعله إماما فاتهمه "
- وقال نُعيم بن حماد : " محمد بن إسماعيل فقيه هذه الأمة "
- وقال سليمان بن حرب وهو ينظر للبخاري : " هذا يكون له يوما صيت "
- وقال أبو حفص الفلاس (ت٢٤٩هـ) : "كل حديث لا يعرفه البخاري فليس بحديث "
- وقال علي بن حُجر بن إياس شيخ البخاري (ت٢٤٤هـ) : " " أخرجت خراسان ثلاثة " البخاري ، وأبا زرعة ، والدارمي " ثم قال : " ومحمد أبجرهم ، وأفقههم ، وأعلمهم "
- وقال الإمام أحمد : " ما أخرجت خراسان مثله "
- وقال قتيبة بن سعيد (ت٢٤٠هـ) : "قد جالست الفقهاء والزهاد والعُبَّاد وما رأيت منذ عقلت كمحمد بن إسماعيل وهو في زمانه كعمر في الصحابة "
- وقال الترمذي : " لم أر أحدا أعلم بالعلل ومعرفة الأسانيد من البخاري " .

واستقصاء وإحصاء ما ورد من الثناءات من أهل العلم على الإمام أمر يعسر ، لكن حسبك من ذلك ما قد تقدم ورحم الله الإمام ، وجزاه عن الإسلام واسنة والمسلمين خير الجزاء ....